

كيف تشارك المادة في الأفكار

لوس إيريكاري

ترجمة: عبد الرحمان مزيان

يجب العودة إلى المادة، موضوع الأجسام، ثم إلى الخصوصيات التي يقال أنها موجودة في المادة. نعرف من خلال هذا الاختبار أنها لا كائن، وأنها ممتنعة عن الألم. إنها غير مادية، ما دام الجسد لاحقا لها، إنها مركبة، وأنها تنتج جسدا باتحادها مع شيء آخر. إذا كان لها كالكائن، اسم مادي، إنها مثل الكائن ومختلفة عن الأجساد فقط. فهي ليست لا روحا، ولا ذكاء، لا حياة ولا شكلا، لا عقلا ولا حدا (في الواقع، ماذا تنتج؟)؛ مجردة من كل خصائصها، لا يمكن أن تكون مسماة كائنا؛ سيكون من اللائق جدا القول بأنها لا كائن، وليس بالمعنى الذي نقوله عن الحركة أو السكون أنهما ليسا الكائن؛ إنها اللا كائن الحقيقي، صورة وشبها للكتلة المادية، إنها توقع للوجود. إنها في سكون، دون أن تكون ثابتة؛ إنها غير مرئية في ذاتها؛ فهي تنفلت من الذي يريد رؤيتها، وتصل حين لا ننظر إليها، الذي ينظر إليها لا يراها، دائما لها في ذاتها صورة المتناقضات، إنها الكبير والصغير، النقص والزيادة، العيب والإفراط؛ شبح غير مستقر، مع ذلك لا يمكنها الهروب، لا قوة لها، لأنها لم تستنزف القوة في العقل وأن الكائن يسبب لها العيب تماما. إنها تكذب في كل ما تعد به؛ إذا ما تصورناها كبيرة ها هي

صغيرة، حين تظهر أنها تزيد فإنها تنقص؛ الكائن الذي نتصوره فيها هو لا كائن، ومثل لعب هارب، كل ما نعتقد رؤيته فيها يلعب بنا وليس إلا شبحا، في شبح، توجد كما لو أنها في مرآة، حيث الموضوع يظهر في موضع آخر غير المكان الذي يوجد فيه، في المظهر، تكون المرأة مملوءة بالأشياء، فهي لا تحتوي على شيء وتظهر أنها تحتوي على كل شيء. «إن ما يدخل في المادة وفي القدر، هي صور» وأشباح كائنات، أشباح تدخل في شبح بلا شكل، وبما أنها بلا شكل، فإن الصور التي نراها فيها تظهر أنها تؤثر عليها؛ لكنها لا تنتج شيئا، إنها كائنات بلا حقيقة، هزيلة وبلا صلابة، كالمادة التي ليست لها أبدا، إنها تخترقها دون أن تقطعها، كالأشياء التي تدخل في الماء، أو كالأشكال التي ندخلها في فضاء فارغ. مع ذلك إذا كانت الأشياء التي نراها فيها لها بعض التشابه مع النماذج التي تحايتها، يمكننا الاعتقاد حينها أن في هذه الأشياء نوعا من قوة هذه النماذج التي تبعثها فيها وأنها تعاني تحت فعل هذه القوة. لكن، بما أن الأشياء التي تنعكس في المادة مختلفة تماما عن هذه الانعكاسات، يمكننا أن نستخلصها من بطلان انطباعنا، ما دام هذا الانعكاس ليس سوى كذب وليس له أي تشابه مع الشيء الذي أنتجه. هش وكاذب، كذب سقط فوق كذب آخر، هذا الانعكاس يجب أن يترك المادة ممتنعة على الألم، كرؤية حلم، كانعكاس على الماء أو في مرآة (وفي هذه المقارنات يبقى مع ذلك تشابهها بين المظاهر والأشياء).»

«بداية هذه التعابير: شيء في شيء آخر،

ببساطة تامة، إنه غير قابل للتأثر، حتى إذا كان مطوقا وسط الكائنات التي تؤثر في بعضها البعض. في بيت ما، الأشياء تتلاقى وتتصادم، لكن البيت والهواء الذي يبقى فيه غير قابلين للتأثر. ليكن هناك فعل متبادل للأشياء التي تتلاقى في المادة، حسب طبيعتها، لا بأس، لكن المادة غير قابلة للتأثر، وحتى إلى درجة مرتفعة أكثر من الخصائص الموجودة فيها، التي، إذا لم تكن متناقضة، فإنها غير قابلة للتأثر بعضها إزاء البعض الآخر.»

«زيادة على ذلك، إذا كانت المادة تعاني، يجب الاحتفاظ بشيء من هذه المادة، التي ستصبح إما التأثر ذاته أو إمكانية مختلفة عن تلك التي كانت عندها قبل وصو ل التي هي في حاجة أن تلتحق بشيء غيابه يجعل تكوينها ناقصا، وحضورها يكملها. لكن المادة لا تريح شيئا بقرب الشكل، ليس هذا الشكل هو الذي يجعلها تصير ما هي عليه؛ فهي لا تفقد شيئا عند انطلاقها؛ بل تبقى على ما هي عليه رأسا. بالنسبة إلى الكائنات التي هي في حاجة إلى نظام وترتيب، علما أن تستقبل هذا النظام، يمكنها أن تستقبله دون أن تفسد، في الحالة التي يكون فيها النظام إمكانية خارجية؛ لكن الأمر يتعلق بنظام ملازم للكائن، هذا الكائن عليه أن يتحمل تلقا؛ بداية إنه دميم؛ ثم يتغير، وبمجرد أن يُسْتَقْبَل النظام، فإن الدميم يصير جميلا. إذن، إذا كانت المادة دميمة تصير جميلة، لن تكون أبدا ما كانت عليه في السابق في حالة دمايتها؛ باستقبالها النظام، فإنها

و: شيء ينتمي إلى شيء آخر، لا يجب أن تتخذ بمعنى واحد. بمعنى واحد تعني أنها تجعل الشيء بحضوره جيدا أو سيئا، بتحويله؛ فهو ما نراه في الأجساد، على أي حال في الكائنات الحية. بمعنى آخر، هي جعل كائن جيدا أو سيئا دون أن يعاني؛ إنها الحالة الروح المذكورة آنفا. أخيرا، هناك حالة الشيء المطبوع على قطعة من الشمع؛ ليس هنا أي ألم يجعل من الشمع شيئا مختلفا، عندما تكون هذه الصورة فيها وإذا ما ذهب، لن ينقص الشمع أي شيء. قس على ذلك أن الضوء لا يغير أبدا شكل الشيء الذي يضيئه. عندما تصير حجارة باردة، فماذا أخذت من البرودة، ما دامت حجارة؟ أي انفعال يعاينه الخط من جراء اللون، وحتى السطح؟ تأثيره يمارس ربما على الجسد الذي هو الذات. ومع ذلك، أي انفعال يأتيه من اللون؟ لا نأخذ للانفعال فعل تحمل وجود اللون ولا استقبال صورة. لنتكلم بالأحرى عن المرايا والأماكن الشفافة بصفة عامة؛ إن الصور التي نراها فيها لا تسبب لها أي انفعال، وها هنا مثال يشبه كثيرا المادة. إنها أيضا صور موجودة في المادة، وهي أيضا أكثر امتناعا عن الانفعال من المرأة. فيها كل درجات البرودة والحرارة. فهي لم تبرد ولم تسخن، لأن التسخين والتبريد يأتي من الخاصية التي تجعل الذات تمر من حالة إلى حالة أخرى. (لعدم وجود الحرارة...) (..)

إذا كان هناك انفعال في شيء ما، يجب إذن أن لا يكون مادة؛ يجب أن يكون زوجا أو بصفة عامة كثرة من المصطلحات المتزامنة. كائن واحد معزول عن الكائنات الأخرى،

تبقى غير قابلة للتأثر باحتوائها الأشكال، فهي تبحث عن نموذج مشاركة غير قابلة للتأثر، لأنه ليس من السهل التوضيح بشكل آخر إلا بنموذج، كيف أن الذات تحتفظ بهويتها بالرغم من الأشكال التي هي حاضرة لها. بهذه الكيفية أثار قضايا، باحثا بلوغ غايته؛ كما أنه يريد أن يظهر بهذه الصورة، بأن الأشياء المحسوسة فارغة من الحقيقة الجوهرية، وأن «المكان» لا مشابه له. لنفترض أن المادة تنتج التأثيرات داخل الأجساد الحيوية بفضل الصور التي تأخذها، دون أن تجرب في ذاتها أي من هذه الانفعالات، يظهر جيدا دوام المادة، ويسمح لنا باستخلاص أنها هي ذاتها لا تستقبل لا هذه الصور ولا الانفعال ولا التغيرات.

«لكن في البداية يجب الإلحاح على اللا انفعالية ويلقن أنه بسبب عادات اللغة، يجب أن نميل إلى الاعتقاد بأنها انفعالية، مثل المكان الذي يقول (أفلاطون): إن المادة «التي هي يابسة، ملتهبة ومبللة». لتأمل فيما يقوله من بعد: «إنها تستقبل أشكال الهواء والماء». لأن الكلمات: «تستقبل أشكال الهواء والماء»، تنتزع قوتها من التعبير: «إنها يابسة، ملتهبة ومبللة» استقبال الأشكال لا يعني أنها مشكلة، لكن الأشكال دخلت فيها؛ إنها ملتهبة» ليست مأخوذة بالمعنى الصحيح، لكنها بالأحرى تعني: «تصير نارا». وأنه ليس الشيء نفسه أن تصبح نارا وتكون ملتهبة؛ الشيء الملتهب يكون كذلك بشيء آخر، وأن فيه انفعالا؛ لكن كيف أن الذي هو جزء من النار يكون ملتهبا؟ مثل ما نقول أن التمثال يمر عبر البرنز، إذا ما قلنا

تفقد حتى كونها مادة، وخاصة إذا لم تكن دميمة عرضيا. إذا كانت دميمة بهذا المعنى وأنها الدمامة ذاتها، فإنها لن تشارك في النظام؛ وإذا كانت سيئة بهذا المعنى الذي هي السوء، لن تستطيع المشاركة في الجيد. إن المشاركة في الأشكال لا تكمن بالنسبة إليها في المعاناة؛ إنها من نوع آخر وليس لها مظهر المعاناة، ربما يمكننا أيضا حل الصعوبة بهذه الطريقة: كيف أن المادة إذا كانت سيئة ترغب في الجيد، دون أن تفقد كونها بهذه المشاركة؟ إذا كانت المشاركة التي نتحدث عنها كما تستمر المادة دون إتلاف وتبقى دائما على ما هي عليه، ليس غريبا أن تشارك في الجيد مهما أنها سيئة. فهي لا تخرج عن ذاتها، لكن بما أنه ضروري بأن تشارك فيه بكيفية ما، فإنها تشارك بما أنها كذلك تماما. باق ما هو بفضل عالم المشاركة هذا الذي يتركها سليمة، فهي لا تتأثر في كونها لأنه يعطىها الشكل؛ فهي أيضا ليست أقل رداءة، ما دامت باقية دائما على ما هي عليه. إذا كانت المشاركة فيه حقيقية وإذا كانت حقيقة متلفة من قبل الجيد، فإنها لن تكون سيئة بالطبيعة. قول أن المادة سيئة، هو قول ما هي الحقيقة، أن لا تتحمل فعل الجيد؛ لكنه الشيء نفسه قول أنها غير قابلة للتأثر مطلقا.

«ها هنا تكمن فكرة أفلاطون حول المادة: إن المشاركة لا تكمن، بحسبه، فيما أن شكلا يرد فيها كذات ويطبوع فيها نوعه، ليجعل معها بمركب فريد، الذي تتغير أجزائه وتختلط بتبادل ودي. أراد أن يفهمنا بأن هذا ليس معنى كلامه، وليوضح كيف

أن النار تمر عبر المادة والشعلة. بالإضافة إلى ذلك، إذا كانت النار التي تقترب من المادة سببا، كيف ألهمت؟ هل هي صورة، كيف هي هذه الزيادة الممكنة؟ ما هو ملتهب ينجم مسبقا عن زوج (من شكل ومن مادة) كيف! زوج، مادام المصطلحان لا ينتجان شيئا واحدا؟ -هل سيكون المنتج واحدا، هل لا يعاني المصطلحان، الواحد إزاء الآخر، لكنهما يؤثران على الأشياء الأخرى؟ -لا، الواحد يمنع الآخر من الفرار»

«يليق أيضا أن يفسروا لنا بأي معنى تهرب من الشكل. كيف تهرب من الأحجار والصخور التي تحاصرهما؟ هل يقولون بأنها تهرب أحيانا من الشكل، ولا تهرب منه أحيانا أخرى؟ بالتأكيد لا، لأنه إذا كانت تهرب منه بمحض إرادتها، لماذا توقفت عن الهرب منه؟ لكن، بما أن الضرورة تبقى علمها، إنه ليس الوقت الذي تكون فيه شكلا. بخصوص السبب الذي يجعل كل مادة لا تمتلك نفس الشكل، إذن يجب البحث عنها في الأشكال التي تدخل فيها بدلا من البحث عنها في المادة.

بأي معنى إذن، نقول بأنها تهرب من الشكل؟ لأن طبيعتها تبقى دائما هي نفسها. ما هذه الحال وإلا لن تخرج أبدا من ذاتها وتمتلك الأشكال التي لم تمتلكها أبدا؟ وإلا، لن نعرف كيف نؤول هذه الكلمات لأفلاطون: «الوعاء والمرضع صيرورة الكون». إذا كانت هي الوعاء والمرضع، فإن الصيرورة مختلفة عنها؛ وإذا كانت فيها التغيرات، وإذا كانت هي هكذا، فإنها سابقة على الصيرورة والتغير. تعني الكلمتان «وعاء

ومرضع» أنها ممتنعة عن التأثر، تماما مثل التعابير «هذا الذي تظهر فيه الأشياء التي تولد»، «هذا الذي تخرج منه»، «المكان والموضع». هذان التعبيران الأخيران حتى ولو صححا إلى «مكان وأشكال»، لا يشيران أبدا إلى أن المادة تتأثر، لكنهما يبحثان عن نوع آخر من العلاقة للأشكال. ما هي هذه العلاقة؟ بما أن هذه الطبيعة لا يجب أن تكون أيا من الكائنات، ما دام عليها أن تتجنب كل جوهر وأن تكون مختلفة تماما (هذا الجوهر، إنها العقول، التي هي حقيقة)، يجب، أن تبقى وتحفظ الطبيعة المحضة التي استقبلتها، ليس بعدم استقبال الكائنات فقط، بل أيضا ببقائها غير مؤهلة لامتلاك صورها. بهذه الكيفية فهي مختلفة تماما؛ إذا سمحت بدخول شكل فيها، وإذا تغيرت باتحادها إلى هذا الشكل، وإن فقدت هذا الاختلاف؛ لن تكون أبدا مكان كل الأشياء وإناء أي شيء. إذا كانت الأشياء «تدخل فيها وتخرج منها»، عليها أن تبقى مطابقة وممتنعة عن التأثر، لكي تستطيع دائما الدخول والخروج. إن ما يدخل فيها هو صورة شيء بلا حقيقة. تدخل إذن فيها حقيقة؟ كيف ستكون ممكنة، في حين أنه غير مسموح لها تماما المشاركة في الحقيقة، ما دامت كاذبة؟ هل دخولها إذن في هذا الكائن الكاذب ذاته كذب؟ هل هي فيها كما تنعكس في المرآة صور الكائنات التي تنظر إلى ذاتها، بما أنها تنظر إلى ذاتها؟ إذا كنا في هذه الحالة، قد حذفنا هذه الكائنات، وإن لم يكن عندنا أبدا ومن الآن فصاعدا ولا أيا من الكائنات نراه الآن في المرآة. سنراه، إنه حقيقة، المرآة

ليس قابلة للاستقبال وتكون حاجزا لكل ما يحدث فجأة لها، زيادة على ذلك، فإن المادة لن تدوم أبدا؛ ولن تكون أبدا غير قابلة للفساد. في حين، إذا كان من الواجب أن توجد مادة، عليها أن تكون دائما مطابقة لما كان في البداية؛ إن القول بأنه يلحق بها فسادا هذا لا يعني الاحتفاظ بها.»

«كان أفلاطون يفكر هكذا، وقد كان له الحق بأن يقول: عما يدخل وما يخرج هي صور كائنات.» الدخول والخروج ليسا كلاما بلا فائدة؛ يراد فهمهما بفحصنا نموذج مشاركة المادة في الأفكار. المشكل الحقيقي لهذا السؤال (كيف تشارك المادة في الأفكار؟) ليست تماما تلك التي فكر فيها أغلب أسلافنا، أي: كيف تصل الأفكار في المادة؟ ما يظهر رائعا، هو أن المادة تبقى غير قابلة للتأثر إزاء الأشكال الحاضرة فيها، بينما الأشكال التي تدخل فيها تعاني بعضها إزاء البعض الآخر.

ذاتها، لأنها شكل. ولكن في حالة المادة، لم نعد نرى شيئا على الإطلاق، لأنها ليست شكلا؛ وإلا، يجب في البداية رؤيتها في ذاتها؛ لكن قد يحصل لها شيء من الشبه للهواء الذي لا نراه حتى ولو كان مضاء، لأننا لم نكن نراه عندما كان بلا ضوء. أيضا هلا نعتقد بوجود الانعكاسات في المرآة، أو نعتقد فيها أقل لأننا نرى جيدا المرآة التي توجد فيها، ولأن هذه الأخيرة تبقى حين تختفي هذه الانعكاسات، لكننا لا نرى المادة في ذاتها، ولا حين تمتلك هذه الانعكاسات، ولا حين تفقدها تماما. إذا كان ممكنا أن الانعكاسات التي تمتلئ بها المرايا تبقى، دون أن نرى المرايا ذاتها، إننا لا نتهرب من حقيقة الانعكاسات التي نراها فيها. إذا كان الانعكاس في المرآة شيئا ما، كذلك أيضا هي الأشياء المحسوسة في المادة؛ ما دام هذا الانعكاس ليس سوى مظهرا، علينا أن نقول بأنه أيضا لا يوجد في المادة إلا المظهر؛ إن هذا المظهر يعزى إلى الوجود الجوهرى للكائنات الحقيقية؛ للكائنات جزء حقيقي وأبدي في هذا الوجود؛ لكن اللا كائنات لا تشارك فيه حقيقة؛ لأنه لا يجب أن يكون عندها نموذج الوجود الذي سيكون لديها، إذا لم يكن فيها كائن؛ وستوفر عليه، إذا كانت موجودة هي ذاتها.» التأثير؛ حينئذ تحدث فجأة ميزة ثانوية فيها، القابل للاستقبال لم يعد أبدا مادة، لكنه مادة مؤهلة. وإذا اختفت هذه الميزة بدورها تاركة فيها بعضا من الناتج من فعلها، ها موضوع المادي مغير أيضا. بتقدمنا في هذا الطريق، سيصبح الموضوع شيئا آخر تماما بحيث أن المادة تصير متنوعة ومتعددة الشكل؛